دور الأسطول المصري في حروب الدولة العثمانية
في النصف الثاني من القرن التاسع عشر
(حرب القرم ١٨٥٣- ١٨٥٦ نموذجا)

دكتور صلاح أحمد هريدي علي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب– جامعة دمنهور

قبل التعرض لدور الأسطول المصري في حرب القرم (١٨٥٣- ١٨٥٦) لا بد من التعرض لحالة مصر العسكرية بعد صدور فرمان ١٨٤١. وأثر ذلك علي الجيش والأسطول، وخاصة أنه حدد عدد الجيش بثمانية عشرة ألف، وعدم بناء السفن الحربية إلا بفرمان من الباب العالي، وخاصة أن تلك الحرب، قد شهدت ولايتي كل من عباس باشا الأول (١٨٤٩- ١٨٥٤) وسعيد باشا (١٨٥٤- ١٨٦٣) وسيبرز البحث المساهمة المصرية في تلك الحرب، وخاصة أن بعض المصادر العثمانية لم تشر إليها من بعيد أو قريب، ويرجع ذلك إلي أن مصر ولاية عثمانية، وطبقا لذلك عليها أن تساهم في أي حروب تشترك فيها الدولة العثمانية، ووضح هذه الدور في حرب الدولة العثمانية في معركة نوارين أو نفارين البحرية عام ١٨٢٧، وفيها تحطم الأسطول المصري، وكان هذا سببا كافيا في إساءة العلاقات بين السلطان العثماني محمود الثاني (١٧٨٥- ١٨٣٩) وبين واليه في مصر محمد علي باشا (١٨٠٥- ١٨٤٩) ولم تنقطع المساهمة العسكرية عند هذا الحد بل استمرت بعد ذلك في عصر خلفاء محمد علي، ووضح ذلك في عهدي كل من عباس باشا وسعيد، وخاصة عندما قامت حرب القرم بين الدولة العثمانية ولروسيا (١٨٥٣- ١٨٥٦) وأيضا في عهد الخديوي إسماعيل في الاشتراك في حروب الدولة العثمانية مثل إخماد الثورة التي قامت في عسير والبلقان وغيرها من الحروب.

أما بالنسبة لموضوع هذه الدراسة فنجد أن فرمان ١٨٤١م، حدد قوة مصر البرية بألا تزيد عن ثمانية عشر ألف جندي في وقت السلم، وبألا يزيد محمد علي قوته البحرية إلا بأمر من السلطان، فمصير البحرية قد حدده اعتباران، هما قيود فرمان ١٨٤١، علي أن بناء السفن الحربية والضغط المالي علي مصر كأثر من آثار حروب الشام، وفي ضوء هذين الاعتبارين، حاول والي مصر أن يكيف ظروفه فاستمرت دار الصناعة في الإسكندرية في بناء السفن التجارية اللازمة لنمو النشاط التجاري. هذا فضلا عن بناء بعض الشلوبات (سفن مسطحة) التي تستخدم لتحصينات الشواطئ المصرية.

وكانت معظم تلك السفن بخارية، بعد أن شاع استخدام البخار في أوروبا، كما قامت الترسانة بصنع الآلات والمعدات اللازمة لبناء القناطر الخيرية وأشرف علي هذا العمل المهندس الفرنسي مو جيل، ولم تكن الترسانة تعمل بكامل طاقتها، واشتغل عددا كبيرا من موظفيها خارجها في المصالح الحكومية، كان بعضها لا يمت بصلة للبحرية، وكذلك أيضا لقادة الأسطول[١].

---

[١] محمد محمود السروجى، البحرية المصرية في العصر الحديث، ضمن كتاب تاريخ البحرية المصرية، جامعة الإسكندرية ،١٩٧٣، ص ص ٦٥٤،٦٥٥

وكانت البحرية المصرية عندما تولي عباس باشا الحكم، قد أهملت ووجه كل اهتمامه إلي إنشاء خطوط السكك الحديدية. ومد الأسلاك التلغرافية، واستخدام أكثر ضباط وملاحي السفن الحربية في إقامة الجسور للخطوط المذكورة وغيرها، وبقيت مهملة خالية من الملاحين، ويرجع ذلك لأمرين مهمين الأمر الأول فرمان ١٨٤١، الذي نص علي عدم بناء سفن للأسطول إلا بفرمان من السلطان العثماني نفسه، والأمر الثاني إلي النفور الذي حدث بينه وبين عمه سعيد باشا والذي كان وقتئذ سر عسكر الأسطول بالإضافة إلي خسرو بك الذي كان ناظرا للترسانة، وقد أساء معاملة العمال، حتى اضطر كل من محمد بك الاستانبولي مدير أعمال الهندسة البحرية والإنشاءات وأمين بك وكيل ديوان البحرية، لترك الخدمة والهجرة للخارج خوفا من انتقام عباس باشا منهما حيث أنهما من إتباع سعيد باشا، وأدي ذلك إلي توقف بناء السفن الحربية، وبقيت في أماكنها إلي أن قامت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا عام ١٨٥٣، وطلبت الدولة من والي مصر النجدة كما تقتضيها الفرمانات[١].

وفي هذا الوقت تطلع الجميع في استانبول إلي مصر وجيشها وأسطولها وأموالها، حيث كان للجيش المصري مجد بناه قبل ذلك أيام محمد علي، وحرب الموره، وسوريا وشهرة في بلاد العرب والسودان والأناضول، كذلك كانت روسيا حريصة كل الحرص علي تتبع أخبار الجيش والأسطول المصري، وهل سيقوم بنجدة السلطان العثماني أم لا، وأرسل الصدر الأعظم يخبر عباس باشا الأول بتعذر الاتفاق مع روسيا، ويسأله عما يمكنه إرساله من المعونة، وكان علي عباس أن يفكر قبل أن يتخذ قرارا لإرسال الجيش، إذا تعرضت الدولة العثمانية لخطر التقسيم، ليستطيع أن يواجه بمفرده أطماع هذه الدول، ولقد رأي عباس أن مصيره وثيق الارتباط بمصير السلطان، وأن تمتعه بالحقوق التي قررها فرمان الوراثة، لا يكفلها له إلا بقاء الدولة العثمانية التي منحت هذه الحقوق لوالي مصر. وهنا تبين عباس الحكمة في نجدة الدولة العثمانية كما أن انجلترا التي عاونته تنتظر منه أن يبادر ليخبره السلطان في محنته، ولو تقاعس عن نجدته لما نظرت إليه نظرة الرضا وانتهي عباس إلي ضرورة نجدة الدولة حتى تكون هذه المساعدة داعيا إلي تحقيق مطالبه- فصرح بأنه يضع جميع موارده أي موارد مصر في خدمة السلطان، وبالفعل أرسل يرد علي الصدر الأعظم بأنه سيبذل كل شيء في سبيل نصرة الدولة وتم ذلك بالفعل[٢].

عندئذ أصدر عباس باشا الأوامر إلي كتخدا [٣] مصر ولمأمور أشغال السفن المصرية بجدة بتسليم الفرقاطة [٤] عطية

(١) اسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، الجزء الثاني، المجلد الأول، تحقيق عبد الوهاب بكر وآخرون، دار الكتب والوثائق االقومية، القاهرة، ١٤١٠هـ/٢٠٠٩ ص ص٩٣- ٩٥

(٢) عمر طوسون، الجيش المصري، في الحرب الروسية العروفة بحرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦) مطبعة المستقبل بالإسكندرية مصر ١٣٥٥هـ/١٩٣٦، ص٩١-٩٣، وزاره الدفاع، التاريخ العسكري في مصر في عصر خلفاء محمد علي، القاهرة بدون تاريخ، ص١٧.

(٣) الكتخدا، بفتح الكاف وسكون التاء وضم الخاء في التركية: كتخذا من الفارسية كد خدا، والكلمة الفارسية من كلمتين (كد) بمعنى البيت، و(خدا) بمعنى الرب والصاحب، فالكتخدا هو في الأصل رب البيت، ويطلقها الفرس على السيد الموقر وعلى الملك، ويطلقها الترك على الموظف المسئول والوكيل المعتمد، والأمين: فقد يقال مثلا: وزرا كتخدا لري أي مدير ومكاتب الوزراء وأمناؤهم وكان يقال: خزينة كتخداس أي أمين الخزانة (أنظر، أحمد السعيد سليمان، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف القاهرة،١٩٧٨،ص١٧٦)

(٤) الفرقاطة: والجمع: فراقط، وفراقيط، وفقرطات، ويطلق عليها بالايطالية والاسبانية Fregata وبالفرنسية fregate. والفرقاطه نوع من السفن الحربيه الخفيفه المتوسطة الحجم، استعملها الأوربيون والعثمانيون في حوض البحر المتوسط وفى البحر الأسود منذ اوائل القرن السابع عشر، وعرفت مصر هذا النوع من السفن

الرحمن، وهي من أكبر السفن الحربية في البحر الأحمر [1] وإلي ناظر دار الصناعة بالإسكندرية بتجهيز الأساطيل لإرسالها للدولة العثمانية، ومعها النجدة العسكرية واستدعي الضباط والعساكر البحرية المشتغلين بإنشاء الطرق الحديدية والتلغرافات ليعودوا لسفنهم، ولم يمض وقت قليل حتى جهزت أسطول من ١٢ سفينة حربية، وعين قائدا عليهم حسن باشا الإسكندراني، وعليهم عشرون ألف جنديا بقيادة كل من سليم باشا الشهير بأبي طربوش وأحمد باشا المنكلي وغادرت تلك السفن الإسكندرية عام ١٨٥٢، وعادت الترسانة تعمل مرة أخرى، ولم تنقطع أخبار تلك الحملة بواسطة الباخرتين وابوري النيل وأسيوط [2].

وأرسل خطابا إلي لأمير سعيد باشا، يطلب منه ضرورة استدعاء الضباط والجنود البحرين لعودتهم للعمل، وتم توزيعهم علي الأعمال الأخرى [3] وإلي محافظ الإسكندرية لتجهيز العمال الكافين، لتصريف المياه عن الغليون [4] الذي كاد أن يغرق، وإجراء تحقيق لمعرفة المتسبب عن هذا الإهمال [5]، مع صرف مرتب ثلاثة شهور مقدما لضباط وجنود الأسطول (٦)[6].

أما القوات البرية التي اشتركت في تلك الحرب، فكانت الفرقة الأولي بقيادة الفريق سليم باشا فتحي فقدرت ب١٩٧٢٢ رجلا، و٧٢ مدفعاً [7]، وعندما بلغ عباس فرمان إعلان الدولة العثمانية الحرب علي روسيا، أرسل النجدة الثانية بقيادة اللواء إبراهيم شركس. وقدرت هذه القوات ب٩١٠٩ من الجنود (٨) [8]وعندما وصلت النجدة المصرية لثانية إلي الدولة العثمانية فوجئت بالتمرد في اليونان عام ١٨٥٤، وصدرت إليهم الأوامر للإبحار إلي مرفأ فولو (Volo في تسليا Thessialie) لمقاومة غارة شنها متمردوا اليونان علي هذه الجبهة، ولم يكتفُ بذلك بل قاموا بقيادة جاو هلا وزحفوا علي مدينة ينس شهر– وكانت عاصمة لولاية تساليا عندما كانت تابعة للدولة العثمانية، ثم استولت عليها اليونان وغيرت اسمها إلي لارنسا– في مضيق كالابوكا Kalaboka وعلي موقع شيا بجوار ناردة، ولكن قامت القوات العثمانية المصرية وهزمتهم وتم قتل ٥٠٠ قتيل، و٤٠٠ جريح وفر الباقون تاركين ٨٤ صندوقا من البارود، و٥ صناديق من

الحربية منذ أوائل القرن التاسع عشر وأدخلته ضمن قطع أسطولها (للمزيد انظر، درويش النخيلي، السفن الإسلامية على حروف المعجم، جامعه الإسكندرية،١٩٧٤،ص١١٥)

[1] أمين سامي باشا، تقويم النيل، الجزء الثالث، المجلد الأول، الطبعه الثانية، دار الكتب والوثائق القومية، القاهره، ١٤٢٤خ/٢٠٠٣،ص١٦

[2] اسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، الجزء الثاني، المجلد الأول، ص٩٣–٩٥، عمر طوسون، الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم (١٨٥٣–١٨٥٥) مطبعة المستقبل بإسكندرية ومصر،١٣٥٥ھ/١٩٣٦، ص٤٥

[3] أمين سامي باشا، تقويم النيل، الجزء الثالث، المجلد الأول، ص٢٥

[4] الغليون: يجمع على غلايين وغلاويين، والكلمة معربة عن الأسبانية galeon وهو بالفرنسية gallion وبالانجليزية galleon، وبالإيطالية galeone، وقد أخطأ جاويرّ عند ترجمة اللفظ الإنجليزيه galleys على أنه الغلايين، والأشهر ترجمته إلى شواني، وقد وصفهّ دوزي بأنه نوع من المراكب عالي الأطراف واكتفى (يحيى الشهابى) عند التعريف به بأن قال ضرب من المراكب الشراعية الأسبانية، وقد برز هذا النوع كمركب حربي كبير فى القرن الخامس عشر إلى أوائل القرن السابع عشر.(انظر، درويش النخيلي، السفن الإسلامية على حروف المعجم،ص ص ١١٢–١١٣)

[5] أمين سامى باشا، تقويم النيل، الجزء الثالث المجلد الأول ٣٢

[6] أمين سامى باشا، المرجع السابق،ص٣، م١ ص٥٠

[7] عمر طوسون، الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم، ص٤٧، وزاره الدفاع، جمهورية مصر العربية، التاريخ العسكري فى عصر خلفاء محمد على، القاهرة، (ب.ت) ص ص ١٥–١٦

[8] عمر طوسون، الجيش المصرى، ص١٠٧–١١٠

الخراطيش الجاهزة. ولم تكتف القوات المصرية بذلك، بل وطاردت المتمردين حتى فاليوبا وتعقبتهم إلي بوغليجة وقضت علي تمردهم، واستولت علي تساليا (١)[١].

وترتب علي ذلك طرد السفير اليوناني، والاستيلاء علي أموال وسفن اليونانيين في الأقطار العثمانية، وعلي الرغم من عدم مساعدة الحلفاء بريطانيا وفرنسا، إلا أن القوات الفرنسية احتلت اثينا في ٥ مايو/ آيار ١٨٥٤ لمدة ثلاث سنوات وسقطت الحكومة اليونانية الموالية لروسيا [٢].

وفي أوائل عام ١٨٥٥ أمر الوالي سعيد باشا بإرسال قوات قوامها ١٤٩٧٦ جندي، وتعتبر النجدة الثالثة، وبذلك يصبح مجموع القوات البرية والبحرية ب٥٠٦٥٧ جندي [٣]. علما بأن فرمان ١٨٤١ حدد عدد الجيش ب١٨ ألف جندي، بالإضافة إلي القوات الموجودة بالداخل لحماية مصر.

وكان غرض عباس باشا الأول من طريقة مضاعفة عدد جنوده، عدم إيقاظ مخاوف الدولة العثمانية من جهة العدد الحقيقي الذي يتكون منه الجيش المصري، لأنها عندما ننظر إليه من ناحية عدد وحداته دون ما تحويه كل وحدة منها حسب النظام المتبع، تقدره بنصف عدده الحقيقي، وكانت هذه الطريقة متبعة أيضا في كل وحدات الأسلحة المختلفة في الجيش المصري [٤].

ولم تكتف مصر بإرسال الجيوش والأساطيل بل قامت بإرسال الأموال، حيث تبرع عباس باشا الأول ب٨٠٠٠ كيس (٤٠٠٠٠ جنيه) وتبرع نجله الهامي باشا ب٢٠٠٠ كيس (١٠٠٠٠ جنيه مصري) وحسن باشا المناسترلي ب٧٠٠٠ كيس (٣٥٠٠ جنيه) تبرع بها الموظفون لهذا الغرض [٥].

ووصلت القوات العسكرية إلي استانبول في أغسطس، واستقبلت استقبالا رائعا وكان علي رأس المستقبلين قائد البحرية العثمانية محمود باشا والمشير محمد علي باشا، كما زارهم السلطان عبد المجيد في معسكرهم في بيكوس علي البسفور، وأمر بتوفير الراحة لهم، وصرف مرتب شهر لهم مكافأة لهم، وأتفق أدهم باشا مع القائد العام للجيش العثماني، علي أن تشكل النجدة المصرية جيشا قائما بذاته، فيخضع أفراده للنظم المصرية، ويتولي عباس ترقية من يستحق حتى رتبه الأميرلاي، ويلتمس لمن يستحق رتبه أعلي [٦].

هكذا كانت حالة الجيش البري والبحري لمصر عقب إصدار فرمان ١٨٤١م قبل اشتعال حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦)، والتي تشغل مكاناً فريداً في تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر. وأن الأساليب الحربية التي اتبعت فيها أشبه بأساليب العصر النابليوني منها بأساليب الفترة التي يوشك أن يبدأها مولتيكه Moltke والنظام العسكري البروسي. واستخدمت فيها السفن البخارية، ولكن أهميتها لم تكن قد قدرت حق قدرها بعد، وكان البرق قد أدخل في فينيا. ولكن

---

[١] عمر طوسون، الجيش المصرى، ص ١٣٣-١٣٥، وزارة الدفاع التاريخ العسكرى فى عصر خلفاء محمد على، ص٢٤.

[٢] يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمه عدنان محمود سليمان، مراجعه وتنقيح محمود الأنصارى، المجلد الثانى، مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، استانبول، ص٥٠-٥١

[٣] وزارة الدفاع، التاريخ العسكري، ص ص ٣٠- ٣١

[٤] عمر طوسون، الجيش المصري، ص ص ٤٧- ٤٨

[٥] نقسه، ص١٤٢.

[٦] عمر طوسون، الجيش المصرى، ص ٩١-٩٣، وزارة الدفاع التاريخ العسكري ،١٧

استانبول والقرم كانتا لا تزالان أبعد من مداه. أما النواحي المتصلة بتغذية الجيوش وأحولها الحية فكانت أقرب كلها إلي طابع العصور الوسطي. وعلي هذا تعد حرب القرم آخر حرب دارت علي نطاق واسع دون الاعتماد علي إمكانيات العلم الحديث. وإذا كانت أساليبها وأدواتها تبدو غريبة للطالب العصري، فإن أهدافها ودبلوماسيتها تبدو أغرب وأعجب.

ونجد أن القضايا الكنسية التي يصح أن تنسب إلي عصر الحملات الصليبية، قد ساهمت بنصيب وافر في أسبابها وأن المنتصرين فيها لم يحققوا فيها كسباً كبيراً أن كانوا قد خرجوا منها بشيء علي الإطلاق. فالواقع أن سلامة الدولة العثمانية لم تصن ولم يتم إيقاف الزحف الروسي إيقافاً دائماً. ولسوف نتفق فرنسا وبريطانيا آلاف الأرواح وملايين الجنيهات في حرب ١٩١٤ العظمي لإلغاء بعض نتائج انتصارهما في حرب القرم التي بذلتا لكسبها دماء وأمالا طائلة علي أن هذه الحرب تبدو مع ذلك شيقة جدا من عدة أوجه. فهي تزودنا علي الأخص بنموذج مفيد للكيفية التي تنشب بها الحروب وفيها تصرفات بعض شخوص القصة مجردة تماما من المواربة والتظاهر بالدوافع الزائفة التي يحلو للدبلوماسيين التستر وراءها في العادة [١].

وقد كانت لحرب القرم شأن جميع الحروب أسباب عديدة مجتمعة، ولكن أحوال شبه جزيرة البلقان كانت أكثرها أهمية علي الإطلاق. حيث كان الحكم العثماني يمتد في شبه الجزيرة كلها فيما عدا مملكة اليونان الحرة، وكانت العلاقة بين الدولة العثمانية وممتلكاتها في البلقان تتمثل في جباية الضرائب تاركة للأهالي حرية تسيير حياتهم الاجتماعية. في نفس الوقت كان الضعف واضحا في جميع أمور الدولة السياسية والعسكرية. مما أدي إلي قيام اليونانيون بشق عصا الطاعة عليها وانشأوا دولتهم المستقلة، فلم يكن مناص من أن يثير الجدل بالمثل الذي ضربوه تحركات بين العناصر الأخرى، وقد وفرت المعاهدات الأخيرة لسكان ولايتي والاشيا ومولدا فيا وراء الدانوب– الذين لم يكونوا عرفوا باسم الرومانيين قدرا كبيرا من الحكم الذاتي. فراحوا يبدون لهفتهم إلي الحصول علي المزيد. وكان الصربيون معتدين بتاريخهم العظيم غير قانعين بالقدر المحسوس الذي حصلوا عليه من الحكم الذاتي من قبل. أما أهالي الجبل الأسود فكانوا لا يزالون يحتفظون باستقلالهم فعلا وراء جبالهم الحصينة مع أن البلغار والألبان والمقدونية لم يكونوا قد أحسوا بأن لهم كياناً مستقلا. بالإضافة علي عامل الدين والذي كان يتمثل في حكامهم، علي الرغم من أن هذه الشعوب تضم أعداداً كبيرة من المسلمين، فإن المسيحية هي التي كانت غالبة في شكلها الأرثوذكسي. أو اليوناني، وكان القيصر الروسي هو الرئيس الرسمي للكنيسة الأرثوذكسية [٢].

كان عدم الاستقرار سمة ظاهرة علي المواقف في البلقان، وجعلت الدول العظمي الواقعة شمال الدانوب تراقب الأحداث. مثال ذلك النمسا التي تري ضرورة سد الطريق في وجه أي غازيا يأتي من مجري الدانوب الأدنين وعلي هذا فقد كانت

---

[١] أ.ج. جرانت، هارولد تمبرلى، أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين، ١٧٨٩–١٩٥٠، ترجمة بهاء فهمى، مراجعة أحمد عزت عيد الكريم، مؤسسة سجل العرب، الطبعة السادسة، القاهرة ١٩٥٠، ج١، ص ص ٤١٧، ٤١٨

[٢] أ.ج. جرانت، هارولد تمبرلى، المرجع السابق، ص ص ٤١٩،٤١٨

سياستها ممثلة في مقاومة السلطان العثماني، وخوفها الأكبر من الدولة التي يمكن أن تحل محل الدولة العثمانية وكانت يتطلع إلي كسب نفوذ في البلقان إن لم يكن كسب أراضي منه وكانت تخشي نوايا روسيا ومطامعها [١].

وكان القيصر الروسي نيقولا يتابع بقلق تدارك الدولة العثمانية حركة التجديد والتنظيمات وتطورها. ووقوفها سداً منيعا أمام روسيا لوصولها للمياه الدافئة، وكان- نيقولا يحسد شخصية السلطان محمود الثاني ومناداته في أوروبا بلقب الكبير. ولم يكن يبالي بالسلطان عبد المجيد، ويعتبره طفلا، وكان سلطانا فقط لا يعني بشئون الحكم، وتمكن رشيد باشا من حل المشاكل الخارجية الواحدة تلو الأخرى وخاصة أنه تمكن من إذلال روسيا في أوروبا الغربية في سنة ١٨٤٩، بعد إذلالها في أوروبا الوسطي. ولم يكن من الممكن ابتلاع الدولة العثمانية دون إبعاد أوروبا أولا، وإعطائها حصة لها، واستعمل تعبير "رجل أوروبا المريض للغاية" قد يموت بغتة بين أيديهم، ووضح ذلك في مقابلته للسفير الانجليزي في بطر سبورج، مشيرا عليه باقتسام الدولة العثمانية [٢] دون حاجة إلي قيام أي حرب وقالها بصراحة استقلال دول البلقان تحت حماية روسيا، واحتلال استانبول دون ضمها، واستيلاء بريطانيا علي مصر، وإسقاط فرنسا من الحساب [٣] والتي كانت تراقب الوضع بقلق بالغ، وكانت تعتبر انجلترا أكبر منافس لها في السياسة العالمية، ولم تنس لها موقفها من تعاملها مع نابليون عم الإمبراطور نابليون الثالث، وتعلم أن انجلترا ستساند الدولة العثمانية بأية وسيلة من الوسائل، وأنها في هذه الحالة ستقف بجانبها، وإلا فإنها ستكون وحدها- انجلترا- الحاكمة علي نظام وتوازن الدول الكبرى الذي سيعقب الحرب والتي ستكون طويلة الأمد [٤].

وظهرت بعد ذلك مسألة الأماكن المقدسة في كنيسة الميلاد في بيت لحم، حيث تذرع القيصر بشجار نشب بين الرهبان الأرثوذكس المشمولين برعاية القيصر الروحية، والرهبان الكاثوليك المشمولين برعاية الإمبراطور نابليون الثالث الروحية، علي إثر انتزاع جملة أديرة من جانب الأرثوذكسي، وأضطر الرهبان الكاثوليك إلي رفع شكواهم للسلطان العثماني عبد المجيد، والذي أمر بتشكيل لجنة مؤلفة من الطرفين وتحت ضغط القيصر أصدر السلطان فرمانا روعي فيه مصالح الأرثوذكس [٥]وشجع هذا العمل القيصر نيقولا فأرسل إلي استانبول الأمير منتشيكوف Prince Mentchikof فوق العادة في ٢٨ فبراير/ شباط ١٨٥٣، يطلب من الباب العالي الاعتراف بحماية القيصر لكافة المسيحيين الأرثوذكس المقيمين في الإمبراطورية العثمانية وتنحية الرهبان الكاثوليك، وأن يكون للرهبان الأرثوذكس أصحاب الكلمة في الأماكن المسيحية في القدس، وكان رد الباب العالي علي ذلك أن الدولة العثمانية، قد نظمت حقوق الأرثوذكس بفرمان السلطان محمد الفاتح والسلطان سليمان القانوني، وأنه لا يمكن تغييرهما، وأن هذه الحقوق تطبق بشكل كامل، وأن البادشاه هو حامي المذهب الأرثوذكس، وكان هذا الجواب يعني رفض المذكرة، ويعني بالتالي قبول الحرب، واستصحب الأمير

---

(١) المرجع السابق، ص٤١٩

(٢) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الثاني، ص ٤٦-٤٨

(٣) أ. جرانت، هارولد تمبرلي، أوروبا في القرنين، ص٢٢١

(٤) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الثاني، ص ٤٦-٤٨

(٥) يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص٥٠-٥١

منتشيكوف في ٢١ مارس/ آذار جميع العاملين بالسفارة الروسية في استانبول وهم كثير وترك الدولة العثمانية، وعلي أثر ذلك تم تغيير الوزارة في استانبول وتولي منصب الصدر الأعظم مصطفي نائلي باشا وتولي وزارة الخارجية رشيد باشا [١].

وبدأت لحرب بقيام روسيا باحتلال ولايتي الدانوب ملدافيا Moldavie وفلاخيا Valachie، في يوليو/ تموز ١٨٥٣، رومانيا فيما بعد بقيادة جورشكوف Gorcakof، ولم تعلن الدولة العثمانية الحرب إلا في أكتوبر/ تشرين أول من نفس العام، وأعلنت روسيا الدول الأوروبية بأنها لم تدخل حربا شاملة، وأن هذا الاحتلال مؤقتا لحين اعتراف الباب العالي بحقوق الأرثوذكس في كنيسة القيامة Kamame في القدس، وأنها ستنسحب فور هذا الاعتراف، علما بأن هذا العرض يخالف العرض الذي قدمه القيصر لانجلترا لاقتسام الدولة العثمانية، وبدأت الدولتان بإعداد الحشود علي طول نهر الطونة في القفقاس. وكان الجيش العثماني بقيادة السردار [٢] المشير عمر باشا [٣] وتحرك الجيش المصري من بيكوس علي البسفور، وأحر من فارنا إلي حدود الروملي وعبرت الدانوب وقسمت إلي ثلاثة فرق أو أقسام:

١- قسم في سلسترة Silstrie بقيادة اللواء إسماعيل باشا أبو جبل منها جزء في أولتنتزا Olitenzia.

٢- قسم فى بابا داخ Babadage بقيادة اللواء على باشا شكرى

٣- قسم في شُملا shoumila بقيادة سليمان باشا الأرناؤوطي بالإضافة إلى الألاي التاسع سوراي بقيادة اللواء جعفر باشا صادق والألاي الثالث طوبجية[٤] بقيادة الأميرلاي إسماعيل باشا[٥].

وأرسلت الدولة العثمانية في أكتوبر ١٨٥٣، جزءا من أسطولها مكون من ١١ قطعة بحرية بقيادة القبودان عثمان باشا إلي ميناء سينوب علي الساحل الجنوبي للبحر الأسود، وانضم إليها بعض قطع الأسطول المصري المكون من بعض الفرقاطات، في نفس الوقت وصل خارج الميناء بعض قطع الأسطول الروسي، المكون من ٣ قباقات[٦]و٤ فرقاطات وابريق [٧] وآخر بقيادة أمير البحر ناخيموف Nakhimoff، وطلب من قيادته إمداده بقوات إضافية أخرى وأمدته،

---

[١] أ.ج. جرانت، هارولد تمبرلى، المرجع السابق، ص ٢٢١، عمر طوسون، الجيش المصري،ص٤٥.

[٢] السردار: من الفارسية سر بمعنى الرأس ودار بمعنى صاحب، والسردار القائد ولقد كان السلاطين العثمانيون يقودون الجيوش بأنفسهم، ثم صاروا يعهدون بذلك إلى الصدور العظام والوزراء، ثم إلى رجال الجيش، وكان الصدر الأعظم إذا خرج صحب معه طوائف من الإنكشاريه والجبحيه والطوبجية أى المدفعيين والسوارى (أي الفرسان) وطوائف من الدفتردارية ورجال الخزنة والقيودات (للمزيد، أنظر أحمد السعيد سليمان، المرجع السابق، ص ١٢٧-١٣٠)

[٣] يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الثانى، ص ٤٨-٤٩

[٤] طوبجية: الطبجى من التركية بالباء المشربة بمعنى المدفع وأداء النسب التركية إلى الصفه (جي) والطوبجي هو المدفعي (انظر: أحمد السعيد سليمان، المرجع السابق، ص١٤٣)

[٥] جميل خانكى، تاريخ البحرية المصرية، القاهرة، مطبعة دار الكتب،١٩٤٨، ص٣٥٤

[٦] قباق: والجمع قباقات. نوع من المراكب الحربية الكبيرة المدرعة، ويعنى بالتركية الغطاء ومنه كوز قباغي أي المركب الحربى الكبير. وقد عرف العثمانيون هذا النوع من السفن الحربية منذ أوائل القرن السابع عشر، وعندما تغيرت أسماء السفن في ذلك الوقت فعرف الغليون باسم قباق، واستعمله الفرنسيون والإنجليز واليونانيون في أساطيلهم العاملة في البحر المتوسط وكذلك الروس في البحر الأسود في حين كان هذا النوع من السفن أحد قطع الأسطول المصري في القرن التاسع عشر، وأنشئ بدار صناعة الإسكندرية أربعه مراكب منه فى عام.١٢٤٨هـ/١٨م، وكان أسطول مصر الذي شارك في حرب القرم يشتمل على ثلاث قطع منه، فى كل واحدة منهما مائة مدفع (انظر: درويش النخيلي، السفن الإسلامية، ص١١٩)

[٧] أبريق، وقد استعمله هذا اللفظ في القرن التاسع عشر الميلادى للدلالة على نوع من السفن الحربية الخفيفة العاملة فى البحر المتوسط، وإن كانت الدلائل أيضا أن العثمانين عرفوا هذا النوع من السفن منذ أوائل القرن الثامن عشر الميلادي. وكان الأبريق أحد قطع الأسطول المصري في القرن التاسع عشر. (انظر: درويش النخيلي، السفن الإسلامية، ص١)

بادئا بمحاصرة الميناء حتى يعرقل خروج أية قطع حربية عثمانية مصرية، وأصدر عثمان باشا أوامره بإطلاق النيران علي الأسطول الروسي في ٣٠ نوفمبر ١٨٥٣، وبدأ القتال بين الطرفين في معركة غير متكافئة، ودمر الأسطولين المصري العثماني بالكامل، وكانت نتيجة المعركة ٢٠٠٠ قتيل وتمكن ألفين من النجاة سباحة وخسرت مصر في تلك المعركة أربع سفن من أسطولها وعلي الفوز أصدرت الأوامر لترسانة الإسكندرية بسرعة العمل علي صناعة بعض القطع لتعويض ما فقدته مصر في معركة سينوب[١]. ويقال أن إرساله رشيد كان معتمدا، حيث أراد أن يقضي علي تردد إنجلترا وفرنسا في دخولهما الحرب ضد روسيا، يلقي في روعهما بأن المضايق قد فتحت للأسطول الروسي، ولقد نشرت بالفعل مقالات شديدة حول الخطر الروسي[٢] وأثارت هذه الكارثة عاصفة من السخط في أوساط الرأي العام في إنجلترا ضد روسيا. وأطلق الشعب الإنجليزي علي هذه الموقعة مذبحة سينوب Massacre of Sinope، وقامت مظاهرات في استانبول تطالب بالثأر من الروسيا، وكانت الحكومتان البريطانية والفرنسية قد أمرتا أسطولهما بالتحرك نحو خليج بيزيكا عند بداية الأزمة خارج الدرنيل، وأذنت الحكومة العثمانية للأسطولين في اجتياز منطقة المضايق بصفتها قوات حليفة تقف إلي جانب الدولة العثمانية ضد الروسيا، وأظهر الشعب التركي مظاهر الانبهاج بوصول وحدات من الأسطولين الفرنسي والبريطاني واستقبلهما علي ضفاف البوسفور استقبالا حماسيا[٣].

عندئذ طلب رشيد باشا من الإمبراطور نابليون الثالث التوسط لدي القيصر لطلب الصلح، وأنطلت عليه تلك الخدعة، وأتصل بالفعل بالقيصر ليطلب الصلح، ولم يوقف الحرب وأذاع بيانا شديد اللهجة بأن الإنجليز والفرنسيين خانا الدين المسيحي بانحيازهم للعثمانيين وقال قولته المشهورة "أشعر أن يد السلطان علي خدي" وعرض نابليون الثالث الاتفاق مع إنجلترا ضد قيصر روسيا والتي كانت عازمة علي مساعدة الدولة العثمانية ضد روسيا وأنها كانت قلقة بين اتفاق فرنسي روسي علي هذا الأساس قبلت العرض الفرنسي حيث خسر القيصر الحرب بالطرق الدبلوماسية بالإضافة إلي انتصار عمر باشا في ولايتي الدانوب رومانيا في حروب ميدانية. غادر كل من سفيري انجلترا وفرنسا بطرسبورج في ٦ فبراير/ شباط ١٨٥٤، وأثبت رشيد باشا أنه أكبر دبلوماسي في العالم بشكل لا يقبل الجدل[٤].

وفي الثاني عشر من مارس/ آذار من عام ١٨٥٤ عقدت معاهدة ثلاثية قامت علي تحالف بين الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا، أطلق عليها معاهدة تحالف من أجل المساعدة العسكرية للباب العالي Treaty of Military aide to the Sublime porte جاء فيها أن ملكة بريطانيا فيكتوريا، وأمبراطور فرنسا نابليون الثالث استجابا لطلب السلطان مساعدته لصد العدوان الروسي الذي هدد سلامة الإمبراطورية العثمانية، وأنهما قد أمرا قواتهما البحرية بالتقدم نحو استانبول، وقواتها البرية للدفاع عن الأراضي العثمانية في أوروبا وآسيا ضد هذا العدوان (المادة الأولي) وقررت المعاهدة أنه طالما يتحقق هدف المعاهدة بإنزال الهزيمة بالقوات الروسية وعقد الصلح، فإن ملكة بريطانيا وإمبراطور فرنسا يتخذان التدابير للانسحاب الفوري لقواتهما البحرية والبرية التي اشتركت في الحرب. وحددت المعاهدة لجلاء القوات البريطانية

(١) أمين سامى باشا تقويم النيل، الجزء الثالث ص١١٠-١١٥

(٢) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية ص ٤٩-٥٠، عمر طوسون الجيش المصري، ص٩٨

(٣) عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الأول، الإنجلو القاهرة، ١٩٨٠،ط١،ص٢٢٤-٢٢٦

(٤) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الثانى، ص٥١

والفرنسية فترة أربعين يوما أو أقل من ذلك إذا كان ممكناً من تاريخ التصديق علي معاهدة الصلح مع الروسيا[١]. وعقبة ذلك أصبحت الدول الثلاث لها قيادة عسكرية موحدة وخضوع الوحدات البحرية الإنجليزية والفرنسية للقوانين العثمانية. وأعلنت الحرب من جانبهما علي روسيا بصورة رسمية في ٢٧ مارس/ آذار ١٨٥٤ في الوقت الذي أحتل الروس دوبرجا Dobruca. وانتصر عمر باشا علي الروس في كالافات KALFAT وطاردهم حتى Karayaouva وصلت القوات الإنجليزية الفرنسية إلي جاليبولي في ٣١ مارس/ آذار ثم اتجهوا بعد ذلك إلي أوديسا وقصفها بالمدفعية في ٢٢ أبريل/ نيسان ١٨٥٤، أما الجيش العثماني بما فيهم الجيش المصري فاجتاز منحني الطونة كما سبق القول وأدخل إلي ولايتي الدانوب فرقتين الأولي من توتر خزان Tutrkan والأخرى من يركوى Yerkoy، وانهزم الجيش الروسي في الحرب الميدانية دينسكا Dijenca الدائرة علي الضفة المقابلة لTutrkan وواجه الجيش العثماني صعوبات في القفاس[٢]. وتحرك الأسطول العثماني مع الأسطول المصري إلي ميناء سينوب الواقع علي البحر الأسود[٣].

بعد انتصار العثمانيين في جبهة الطونة في معركة جوزليف Gozleve في ٢٧ فبراير/ شباط ١٨٥٤، وبلغت القوات الخاصة بالحلفاء ٢٠٢٠٠٠ جندي منها ٥٥٠٠٠ عثمانية، وأثناء سير العمليات العسكرية توفي القيصر الروسي نيقولا الأول في ٢ مارس/ آذار من نفس العام وتولي أبنه الكسندر الثاني قيصراً، ووقعت الدولة العثمانية اتفاقية مع مملكة سردينيا بتاريخ ١٥ مارس، ووقعها عن الجانب العثماني الصدر الأعظم رشيد باشا ووزير الخارجية عالي باشا وعن الجانب السرديني فيكتور إيما نويل Victorid Emanuele وكان هدفه تحقيق الوحدة الإيطالية تحت تاجه، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف أرسل ١٥٠٠٠ جندي، ولم تكن سردينيا في عداد الدول الكبرى لعدم تحقيق الوحدة الإيطالية[٤]. وفي ٢٧ مارس/ آذار ١٨٥٤ أعلنت انجلترا وفرنسا الحرب علي روسيا، وانضمتا إلي جانب الدولة العثمانية في مايو/ آيار ١٨٥٤ ووصل الجيشان إلي جاليبولي واستانبول، ثم توجها إلي فارنا، واتفق علي أن يكون الجيش المزمع إرساله إلي القرم، مكوناً من ٩٠ ألف جندي منهم ٤٠ ألف جندي فرنسي، بقيادة المارشال سان أرنو Arnud، ٢٠ ألف جندي إنجليزي، ١٠ آلاف جندي مصري، ٥ آلاف جندي تونسي، ٥ آلاف من أجناس مختلفة[٥]. وبدأ الروس بمحاصرة سلسترة منذ مايو/ آيار ١٨٥٤ والقلعة بقيادة المرشال باسكيفيتش Paskievic، القائمة علي نهر الدانوب ومعه ٤٠ ألف جندي، وحاصر طابية العرب وأنذر حاميتها بالتسليم ورفض القائد العثماني موسي باشا الإنذار وفي ٢٠ مايو/ آيار ١٨٥٤، شن الروس ثلاث غارات علي ثلاثة حصون منفصلة في المدينة، وهي طابية إيلانلي وطابية أردو وطابية العرب– التي كان يرابط فيها جنود مصريون وفشلت محاولة الروس في الاستيلاء عليه، وحاول الروس بعد ذلك اجتياز الخندق وتسلقوا ساتر

---

(١) عبد العزيز محمد الشناوي، المرجع السابق جـ١،ص٢٢٥-٢٢٦

(٢) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الثانى ص٤٨-٥١، إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دولة البحار،جـ٣، ص٢٦٤

(٣)، إسماعيل سرهنك المرجع السابق، ص٢٦٤

(٤) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الثانى ص٥٣

(٥) عمر طوسون، الجيش المصري، ص١٤٣-١٤٥، وزارة الدفاع، التاريخ العسكري،ص٨

(٤) عمر طوسون،المرجع السابق،ص ص ١٤٦،١٤٧، وزارة الدفاع،المرجع السابق ،٢٥،٢٦

الحصن، إلا أن القوة المصرية المرابطة، دفعتهم إلي أسفل الخندق، وانسحب الروس تاركين حوالي ألف وخمسمائة قتيل وبعض أسلحتهم، وكانت خسائر القوات المصرية خمسين قتيل وخمسين جريح [1].

وفي ٢ يونيو/ حزيران ١٨٥٤، أمر المارشال باسكيفتش Paskievic بعد أن وصلته الإمدادات بالهجوم علي الحصن، واشترك معه في هذا الهجوم أسطول الدانوب الروس في قصف الحصون الأخرى، واستطاعوا فتح ثغرة في طابية العرب، وقاومهم العثمانيون والمصريون بشدة عندئذ اضطر الروس للانسحاب. وجرح باسكيفتش بجرح بليغ. وعاد إلي روسيا وعين الأمير جورباكوف بدلا منه وجرح من جرح بعد ذلك. وقتل بعض قادة الجيش الروس وجرح من جرح اضطر عندئذ الجيش الروسي برفع الحصار الذي دام ٤١ يوماً، ولكن القدر لم يمهل موسي باشا بفرحته إذا إصابته طلقة أودت بحياته.

وفي سبتمبر أيلول ١٨٥٤ هبطت قوات الحلفاء المشتركة العثمانية بما فيهم بعض وحدات من الجيش المصري بقيادة سليمان باشا الأرناؤوطي والفرنسيون والإنجليز في اوباتويا Eupatoria، شمال سباسبتول فبدأ المرشال سان ارنو Marshal Saint Arnaio، واللورد راجلان Lord Raglan زحفهما صوب المدينة، وفي ٢٠ سبتمبر/ أيلول التقيا بالقائد الروسي منتشكيوف وكان مرابطا علي الضفة الشمالية لنهر ألما Alma، وبعد قتال عنيف هزم الروس هزيمة كاملة، وأصبح الطريق مفتوحاً إلي سباسبتول، إلا أنهم لم يهاجموها علي الفور فانتهز ذلك القائد الروسي تودلين الفرصة وأقام التحصينات اللازمة، مما أدي إلي توقفهم، وأدي ذلك لحصار المدينة لمدة عام من سبتمبر/ أيلول ١٨٥٤ حتى سبتمبر/ أيلول ١٨٥٥، مما سهل للروس إمداد المدينة بالأسلحة والذخائر، ولم يفلح الحصار الاقتصادي علي سباسبتول ودارت المعارك حولها وأدي إغراق بعض قطع الأسطول الروسي عند مدخل ميناء المدينة مما أعاق تحرك الحلفاء، وحاول منشيكوف وقطع اتصال الحلفاء بقاعدتهم الحربية في بلاكلافا Balclava، ولكنهم تمكنوا من صده. كرر المحاولة علي انكرمان. ولكنهم صدوا هذا الهجوم بمشاركة سردينيا. ولم يتمكنوا من دخول المدينة، ولعبت الظروف دورا مهما ويرجع ذلك إلي كبر القيادتين في السن واستخدامهم أساليب بالية في الوقت الذي تفوق فيه تودلين والذي كان من أصل ألماني، بالإضافة إلي سوء الأحوال الجوية والصحية وخاصة بعد ظهور الكوليرا وقضت علي الكثير من الجنود[2].

وسار الزحف علي سباسبتول وسط كل هذه المصاعب سيرا أبطأ بكثير مما كان متوقعا في بداية الأمر، ولما أخفق قصف الحلفاء العنيف المتواصل ما بين ١٧، ٣٠ أكتوبر/ تشرين أول ١٨٥٤ زحزحة الروس عن مواقعهم أدرك الناس لأول مرة أن الجيوش إنما جاءت لتقضي ثمة فصل الشتاء[3]. وفي ٣١ أكتوبر/ تشرين أول من نفس العام، كان حسن باشا الإسكندراني قائد الأسطول المصري عائدا بقسم منه إلي استانبول لإجراء الصيانة والإصلاح هبت عليه عاصفة في البحر الأسود، فغرقت الغليون مفتاح جهاد والذي كان يقوده والفرقاطة البحيرة بقيادة محمد بك شنن فغرقت القطعتان البحريتان ومن فيهما وعددهم ٢١ مقاتلا وكان حسن باشا من الغرقي[4].

(١) عمر طوسون، المرجع السابق ص١٤٧ يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص٥٢

(٢) عمر طوسون،المرجع السابق ص١٤٣-١٤٥. أ. جرانت، هارولد تمبرلي، أوروبا في القرنين، جـ١، ص٤٢٦-٤٣٠، وزارة الدفاع ،المرجع السابق، ص٢٨

(٣) . جرانت، هارولد تمبرلي المرجع السابق، ص٤٣٠

(٤) وزارة الدفاع، المرجع السابق، ص١٩

وفي خلال حصار سباسبتول تقرر الدفاع عن أوبا توريا بجيش مكون من العثمانيين، وتم ذلك في فبراير/ شباط ١٨٥٥، بقيادة إسماعيل باشا أبو جبل،. وسليمان باشا الأرناؤوطي وعلي باشا شكري الذي ظل في الروملي علي نهر الدانوب، وانتقل قائد هؤلاء اللواء سليم باشا إلي أوبا توريا (كوزلوه) مع القسم الأكبر، وعند وصول القوات العثمانية المصرية، بدأ الاشتباك مع الجيش الروسي الذي كان مرابطا أمام أبو تاوريا مستولياً علي جزء من شرق المدينة، واسترد الجيش المشترك الموقع، واستغل الروس الموقف حول الخندق. وفتحوا ثغرة، ولكنهم تصدوا لهم، واضطروا للانسحاب بعد أن مني بهزيمة منكرة[١].

وأثناء سير المعارك استقال رشيد باشا في ٢ مايو/ آيار ١٨٥٥م، بسبب اعتراضه لفتح قناة السويس، حيث كان متأكدا أن هذه القناة ستفتح شهية انجلترا وفرنسا للاستيلاء علي مصر، وكلف علي باشا وزير الخارجية بتشكيل الوزارة، واحتل الحلفاء كرج Kerc في ٢٤ مايو/ أيار ١٨٥٥، ونابا Napa في ٢٨ مايو/ أيار ١٨٥٥، وخطط للهجوم الكبير الذي تم علي قلعة سباسبتول في ٨ يونيو/ حزيران ١٨٥٥ وقتل الكثير من الجانبين، وقتل أيضا القائد الروسي الجنرال ريد Read، واستولي الحلفاء علي خندق ملاكوف Malakof والذي يشكل أهم موقع استحكام لحماية القلعة، وحاصروا سباسبتول لمدة ثلاثة عشر شهراً، وخلال ذلك استولي الأسطول الإنجليزي علي جزر الأند Aland وانقطع الاتصال عن بطرسبورج بالبحر، ولم يبق للروس مجالا للاستمرار في القتال [٢]. وفي منتصف شهر يونيو/ حزيران ١٨٥٥ وصل من أوبا توريا السردار العثماني إكرام عمر باشا إلي مدينة سباسبتول بجيش من الأتراك العثمانيين والمصريين. تقدر قوته بـ١٥ ألف جندي. واحتل المنطقة التي كان يحتلها لواء لجارديان الإنجليزي، والفرقة الإنجليزية الثانية بجوار مرتفعات انكرمان لمهاجمة هذه المدينة الحصينة وفي ٨ سبتمبر/ أيلول ١٨٥٥ سقطت قلعة سباسبتول بعد حصار طويل[٣].

إلا أنهم كانوا قد احتلوا بيا زيد الشرقية Dogubeyazid، فقاموا باحتلال قارص في ١٥ يوليو/ تموز ١٨٥٥، ودافع المشير محمد واصف عنها بقوة قوامها ١٥٠٠٠ في مواجهة الروس بقوة قوامها ٤٠,٠٠ بقيادة مورافيف Muravuyef حاكم ققفقاسيا، واستسلمت المدينة وعلي الرغم من ذلك لم تكن روسيا راغبة في الصلح[٤].

وما أن بدأ الشتاء ينجلي حتى عاد الهجوم علي القلاع من جديد، وقد تحققت بعض المكاسب، وأن باء الهجوم المشترك الذي اختير له موعد يوافق ذكري معركة ووترلو ١٨ يونيو/ حزيران بفشل ذريع كلف الحلفاء كثيرا، وقد أدت وفاة اللورد رجلان فضلا عن الهجوم الذي تعرضت له خطوط الحلفاء وأسفر عن موقعة سرنايا Cernaya إلي تأجيل موعد الهجوم النهائي، وبعد قصف عنيف واستمر لمدة ثلاثة أيام (وما كان ليسمي عنيفا لو أنه حدث أبان الحرب العظمي) افتتح الهجوم في ٨ سبتمبر/ أيلول ومع أن الانجليز قد فشلوا في هجومهم علي قلعة ردان Redan إلا أن لفرنسيين بقيادة مكماهون تمكنوا من الاستيلاء علي قلعة ملاكوف، ولم يعد من المستطاع طردهم من ذلك الموقع الذي يسيطر علي

[١] وزارة الدفاع ،التاريخ العسكري، ص٢٩-٣٠

[٢] المرجع السابق، ص٣١.

[٣] وزارة الدفاع، المرجع السابق، ص٣١

[٤] يليماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الثاني ص٥٣-٥٥

المدينة، فانسحب الجيش الروسي منها لينضم إلي قوات منشكيوف، ودخل الحلفاء فاستولوا علي القلاع والميناء وعدد كبير من المدافع والمستشفيات التي اكتظت بجموع بائسة من الجرحى والمرضي الروس الذين تعذر نقلهم فتركوا ليواجهوا مصيرهم في أبشع الظروف ٨ سبتمبر/ أيلول ١٨٥٥.

ولم يكن سقوط سباسيتول بالضرورة ينهي الحرب فاستمرت ردحاً قصيراً من الزمن. وتمكن الروس في نهاية المطاف من إحراز نصر بإستيلائهم علي قلعة قارص في آسيا الصغرى من القوات العثمانية التي يقودها ضباط من الانجليز، إلا أن ما تكبدته روسيا من خسائر وإرهاق مالي وأيضا للدولة العثمانية وخلال حرب القرم عام ١٨٥٥، بدأت الأزمة المالية تظهر بوادرها في الدولة العثمانية، ولأول مرة في تاريخها اضطرت للاستدانة من الخارج. اقترضت ٥ ملايين قطعة ذهبية بفائدة قدرها ٥% من انجلترا لتغطية نفقات الحرب. استمر الاقتراض بعد ذلك دون انقطاع ووصلت الخزانة العثمانية قبل مضي عشرين سنة إلي درك الإفلاس[١]. وقد زاد من هذه الأوضاع الاقتصادية والمالية السيئة في الدولة حالة الإسراف التي انتشرت بين رجال الدولة وبين الرعايا. والابتعاد عن العادات اليومية البسيطة انتشار أنماط المعيشة ذات التكاليف الباهظة التي اتخذت من أوروبا مثالا يحتذي[٢]. فقد جعل الصلح أمراً مرغوباً فيه للغاية، ولما كان القيصر الجديد حريصاً علي منح بلاده السلم فقد تم توجيه دعوة بوساطة النمسا لعقد مؤتمر في باريس[٣].

وقد نشطت الدبلوماسية أبان الشتاء، وراحت لاجتذاب حلفاء جدد في المعركة ضد روسيا. إلا أن النمسا أبت الاستجابة لأي إغراء. وقد عقدت الدول العظمي مؤتمراً في فيينا استمر من مارس حتى مايو ١٨٥٥. وأثناء ذلك توفي القيصر الروسي نيقولا وخلفه إسكندر الثاني. وقد أوفد هذا الأخير مندوباً عنه إلي فبينا وقبلت روسيا اتخاذ النقاط الأربع أساسا للمفاوضة. فبدأ في لحظة من اللحظات أن السلام قد يأتي فعلا. ولكن الدبلوماسية نادراً ما تجدي في وقف القتال إذ بدأت الحرب وقبل أن يتم تسديد ضربة حاسمة من هذا الجانب أو ذاك وهو قول ثبت صحته هذه المرة فلئن النمسا قد رأت أن الترضيات التي أبدتها الروس استعدادهم للتنازل فإن فرنسا وبريطانيا والدولة العثمانية قد صممت علي مواصلة القتال، وقد عثرت هذه الدول علي حليفا في جبهة القتال لا تخطر علي بال كان كافور في ذلك الحين في ذلك الحين وزيرا لمملكة غريبة الاسم هي مملكة سردينيا ولم تكن للأراضي الإيطالية التي تشمل تلك المملكة أية مصلحة مباشرة في حرب القرم، ولكن كافور قد يضع نصب عينيه هدفاً أبعد.. كان يتمني أن يري مليكه علي رأس إيطاليا المتحدة وقد رأي أن إرسال القوات السردينية إلي القرم سيعزز مطالب سردينيا أن تعتبر ضمن الدول العظمي، ويكتسبها حقا في تأييد فرنسا. ويفسح لممثليها مكانا علي مائدة مؤتمر الصلح، فكان أن بعث إلي القرم ١٥٠٠٠ جندي إيطالي[٤].

انتهت الحرب فعلا بعد سقوط قارص لكن لم تكن روسيا راغبة في الصلح. أيقنت بعد المذكرة التي قدمتها النمسا، بأن دولة محاربة جديدة ستقف ضدها وقد ثبت بروتوكول فيينا قواعد الصلح في أول فبراير/ شباط. وعلي هذا تكون هذه الحرب استمرت حوالي عامين ونصف، حاربت الدولة العثمانية في السنة الأولي منها مدة تزيد علي السنة وحدها بمشاركة

[١] يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الثاني ص٥٤

[٢] سيد محمد سيد، دراسات في التاريخ العثماني، دار الصحوة للنشر، القاهرة ،١٩٩٦ ،ص٢٢٦

[٣] أ. جرانت، هارولد تمبرلد، أوروبا في القرنين ١٩-٢٠، ص٤٣٠-٤٣١

[٤] أ. جرانت، هارولد تمبرلى، أوروبا في القرنين ١٩-٢٠، ص٢٣٠

القوة المصرية من ٣ يوليو/ تموز ١٨٥٣ إلي ١٤ سبتمبر/ أيلول ١٨٥٤) واتضح أن التهيؤ الحربي للجيش العثماني الحديث له أثر محمود الثاني لا يقل عن التهيؤ الحربي للجيش الروسي سيعقد بعد ذلك مؤتمر الصلح في باريس، ويتبوأ نابليون الثالث شهرته كان قد أدخل لفرنسا الصناعات الكبير ولنهضة التجارية خلال مدة قصيرة[١].

معاهدة باريس ١٨٥٦ ومشكلة المضايق والبحر الأسود:

أسفرت حرب القرم بعد سقوط سباسبتول في ٨ سبتمبر/ أيلول ١٨٥٥. في يد الحلفاء وكانت مملكة سردينيا قد انضمت إليهم في معاهدة باريس في الثلاثين من شهر مارس/ آذار عام ١٨٥٦. والمواد المتعلقة بالمضايق والبحر الأسود. أكدت معاهدة باريس المبدأ التقليدي وهو منع السفن الحربية الأجنبية من المرور في المضايق، وقالت أن الدولة العثمانية لا تحيد عن هذا المبدأ وأن اتفاقية المضايق التي عقدت في ١٣ يوليو/ تموز عام ١٨٤١م. والتي تؤكد هذا المبدأ تقرها الدول الموقعة علي معاهدة باريس وتعتبرها من ملاحق هذه المعاهدة. وبها نفس القوة المشروعية وأنها تشكل جزءا لا ينفصل عن المعاهدة (المادة العاشرة) وهكذا أكدت معاهدة باريس السياسة العليا للدولة العثمانية فيما يختص بالمضايق. وكانت المادة العاشرة من تلك المعاهدة نصرا للدولة العثمانية.

وقررت المعاهدة أيضا أن يكون البحر الأسود بحرا محايدا في مياهه وموانيه ومفتوحا للسفن التجارية التابعة لجميع دول العالم، ولكن تظل مياهه وموانيه رسميا وإلي الأبد منطقة محرمة علي السفن الحربية سواء سفن الدول التي لها سواحل تطل عليه أو لا تطل عليه فيما عدا استثنائين وردا في المادة رقم ١٤، ١٩ من معاهدة باريس (المادة الحادية عشرة) ونصت المعاهدة علي ألا تقام عوائق أمام التجارة في موانئ ومياه البحر الأسود، وألا تخضع هذه الموانى والمياه إلا للوائح الصحية والعادات ونظم الشرطة التي توضح بروح تستهدف نمو المعاملات التجارية والبحرية لكل الدول. تسمح الدول العثمانية والروسيا بتعيين قناصل للدول الأجنبية في الموانئ الواقعة علي البحر الأسود (المادة الثانية عشرة) وذكرت معاهدة باريس أيضا أن إنشاء ترسانات بحرية حربية علي سواحل البحر الأسود أو الإبقاء علي الموجود منها يصبح أمرا لا مبرر له تأسيسا علي حيدة البحر الأسود. وبناء علي ذلك تتعهد كل الدولة العثمانية والروسيا بعدم إنشاء أو إبقاء أية ترسانات بحرية عسكرية علي سواحل هذا البحر (المادة الثالثة عشر) وهكذا حافظت معاهدة باريس إلي حد كبير علي السياسة العليا للدولة العثمانية حين جعلت البحر لأسود منطقة محرمة علي السفن الحربية لجميع الدول بما فيها الروسيا [٢].

وقد أرسل السلطان عبد المجيد إلي سعيد باشا يشكره ويثني علي الجنود المصريين وشجاعتهم وبسالتهم، ويعلمه بعقد الصلح بينه وبين روسيا، ولدي عودة الجنود المصريين إلي استانبول منح السلطان ذوي الكفاءة منهم، والذين امتازوا بأعمال بطولية أو سمة قبل رجوعهم إلي الوطن [٣].

أما عن بسالة الجنود المصريين الذين شاركوا في حرب القرم، فقد كتب الأميرال الإنجليزي سليد Slede مؤلف كتاب "وحرب القرم" حيث قال "هؤلاء الجنود الذين لقي القبض عليهم بغلظة. وانتزعوا من عقر دورهم وصياح أولادهم من حولهم، وانتقلوا من ضفاف فروع النيل المضيئة بنور الشمس إلي غدران نهر الدانوب القائمة، ومع هذا ظلوا إلي نهاية

[١] يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الثاني ص ص٥٤-٥٥

[٢] عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية ، ص ص ٢٢٦-٢٢٧

[٣] وزارة الدفاع ،التاريخ العسكري ،ص ٣٢-٣٣

الحرب محتفظين ببسالتهم وقوة روحهم العسكرية، وامتازوا دوما سواء أكان ذلك في بلغاريا أم غيرها من المعارك وأظهر ما في كل وقت جلدا وصبرا عند التعب والحرمان.

وجاء في خطاب أرسله الجنرال الفرنسي أوسمونت إلي مسيو أميه فالتر ينيه بتاريخ ٤ مايو وفيه يصور حرب القرم كما يلي:

"لقد أتي في غصون حرب القرم قسم من أولئك الجيوش المصرية المجيدة ليعاونونا في أعمال الحرب ورأيت في أوبا توريا عندما كنت محافظا لها فرقة مصرية مؤلفة من زهاء ١٢ ألف جندي، وهي تكون جزءاً من جيش عمر باشا رأيتها في المناورات ورأيتها في الحرب تقاتل جنباً إلي جنب مع فرقتين من الجيش التركي وأنا أصرح إنها تفوق هاتين الفرقتين في كل أمر"

ونشرت صحيفة المنيتور Moniteur وهي جريدة كانت تصدر في ذلك الوقت في فرنسا:

"يعتبر الجنود المصريون أحسن جنود في أوبا توريا وهذه أيضا كانت شهرتهم في حرب الدانوب، ويعلم الجميع أنهم ألقي علي كاهلهم كل أعباء الدفاع عن سلسترة وقالت الصحيفة أيضا علي لسان المسيو فانترينيه في كتابه سليمان باشا لقد أثبت المصريون أنهم خير الجنود الذين دافعوا عن أوبا توريا ونالوا هذه المكانة ذاتها في حرب الدانوب واحتملوا في جدهم معظم العبء في الدفاع عن سلسترة، وقالت في مكان آخر أن المصريين يعرفون في الجيش التركي وفي البلاد التركية بالعرب. وطريقتهم في القتال تشبه طريقة تلك الشعوب الحربية التي تجمع إلي جانب الشجاعة والإقدام الذكاء والنظام.

وقال المسيو مريو في كتابه مصر الحديثة "يصف الجيش المصري في عهد سعيد بمناسبة حرب القرم إن كفاء الفلاح المصري في فهم النظام الحربي وإتباعه إياه وما أشتهر به من الثبات، والشجاعة في مواجهة الأعداء، كل هذه المزايا قامت عليها الأدلة لا في ميادين القتال بجزيرة الرب وسوريا في عصر محمد علي فحسب، بل بحسن دفاع الجيش المصري عن سليترة وأوبا توريا في حرب القرم(١).

وأنعم السلطان علي كل قائد من القوات بعلبة التبغ مرصعاً بالماس وعلي كل ضابط وصف ضابط براتب شهر، ومن الطرائف أن سلفه السلطان محمود قبل ذلك بعشرين سنة، وزع في هذا الموضوع غبتة أو سمة علي الجيش الروسي الذي كان معسكرا ليصد نفس هذه العساكر المصرية إذا تقدمت نحو الأستانة(٢) بناء علي استدعائه من قبل السلطان محمود ليعاونه في الحيلولة دون تقدم جيش إبراهيم باشا إلي الأستانة وأن مضارب القواد المصرية نصبت قرب الحجر الذي نصب تخليدا لذكري إقامة الجيوش الروسية في هذا المكان، وهكذا شاء القدر أن يعيش الحال في هذه المرة فجعل الجنود المصريون يحلون محل الجنود الروس في هذا المكان ويحاربون مع الدولة هؤلاء الجنود الذين حاربوهم معها (٣).

ثبت المصادر والمراجع

١. أ. جرانت هارولد تمبرلي، أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين، ١٧٨٩ ١٩٥٠، ترجمة بهاء فتحي، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم، مؤسسة سجل العرب، الطبعة السادسة، القاهرة، ١٩٥٠.

(١) نقلا عن وزارة الدفاع جمهورية مصر العربية، التاريخ العسكري في عصر خلفاء محمد على، ص٣٣-٣٤.

(٢) عمر طوسون، الجيش المصرى فى الحرب الروسية، ص٩٦.

(٣) المرجع السابق، ص٩٣- ٩٤.

٢. أحمد السعيد سليمان، تأصيل ما ورد ف تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨.

٣. إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، المجلد الأول، الجزء الثاني، تحقيق عبد الوهاب بكر وآخرون، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩.

٤. أمين سامي باشا، تقويم النيل، الجزء الثالث، المجلد الأول، الطبعة الثانية، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٥. جميل خانكي، تاريخ البحرية المصرية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٤٨.

٦. درويش النخيلي، السفن الإسلامية علي حروف المعجم، جامعة لإسكندرية، ١٩٧٤.

٧. سيد محمد سيد، دراسات في التاريخ العثماني، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ١٩٩٦.

٨. عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفتري عليها، الجزء الأول، لأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠.

٩. عمر طوسون، الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم، ١٨٥٣– ١٨٥٥، مطبعة المستقبل بالإسكندرية ومصر، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م.

١٠. محمد محمود السروجي، البحرية المصرية في العصر الحديث، ضمن كتاب تاريخ البحرية المصرية، جامعة الإسكندرية ١٩٧٤م.

١١. وزارة الدفاع، جمهورية مصر العربية، التاريخ العسكري في مصر في عصر خلفاء محمد علي، القاهرة بدون تاريخ.

١٢. يليماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان، مراجعة وتنقيح محمود الأنصاري، المجلد الثاني، مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا استانبول، ١٩٩٠.



